كيف تؤمن بالله؟

كتبه غريب الديار ٢٥ شعبان ١٤٤٢

إن السؤال كيف تؤمن بالله سؤال غريب لا يمكن أن يكون وجيها بالنظر للمنطق، وقد أشار ربنا إلى هذه الحقيقة في قوله:

﴿كَيفَ تَكفُرونَ بِاللَّهِ وَكُنتُم أَمواتًا فَأَحياكُم ثُمَّ يُميتُكُم ثُمَّ يُحييكُم ثُمَّ إِلَيهِ تُرجَعونَ﴾ [البقرة: ٢٨]

فالإيمان بالله أمر بديهي فطري كل شيء حول الإنسان يؤكده، بما فيه أنفاس الإنسان نفسه.

ولكن بالرغم من ذلك نجد أن الله عز وجل أكد الإيمان بالله أشد توكيد، وقدم الأدلة العقلية الغير متناهية على مسألة الإيمان به سبحانه، والتي من بينها الآية السابقة وآيات أخرى هي جل القرآن.

في هذا المقال سوف نعرض بعض تلكم الآيات القرآنية، والتي تبين الطريق العملي للإيمان بالله حق الإيمان، كما آمن إبراهيم عليه السلام، وذلك من خلال المحاور التالية:

- الحاجة إلى الإله
- ما هو الإيمان بالله
- التأمل في ملكوت السماوات والأرض
- نكران الذات والافتقار إلى اللّه
- البراءة من المشركين
- التوجه إلى اللّه

الحاجة إلى الإله

رأينا في مقال سابق من هذه السلسلة كيف أن إبراهيم عليه السلام أعلن براءته من آلهة قومه, وأنهم ضالون حين عبدوا من لا يملك لهم نفعا ولا ضرا حين قال :

﴿وَإِذ قالَ إِبراهيمُ لِأَبيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصنامًا آلِهَةً إِنّي أَراكَ وَقَومَكَ في ضَلالٍ مُبينٍ﴾ [الأنعام: ٧٤]

فكان من الضروري أن يجد إلها يعبده بعد أن جرّد الأصنام من صفة الآلهة.

يقول الملحدون ولماذا ضروري أن يوجد إله؟

أليس السعي في إيجاد إله لم يره المرء, إنما هو خلق لشيء غير موجود إلا في مخيلاتنا, ومن ثم فالإله ليس إلا اختراعا بشريا لتبرير العجز البشري؟

هذه الأسئلة يطرحها أغلب الفلاسفة الملحدون وأتباعهم, ممن فسدت فطرتهم, وأرادوا تبرير اتباع الهوى, والتمرد على الدين الذي يقف كعائق أمامهم.

إن جواب السؤال لماذا يجب أن يوجد إله يكمن في طبيعة الإنسان والكون من حوله

فالإنسان خلق ضعيفا مفتقرا إلى الوسط من حوله لكي يعيش, مثله في ذلك مثل سائر الحيوانات والنباتات, ومن ثم فهو مربوب لا رب, ونظرا لكون المنطق يقول أنه لا يوجد فعل من غير فاعل, فلا بد أن للإنسان خالق خلقه, وخلق الكون, وأودع فيه ما أودع, هو رب له, عليه أن يخضع له وحده.

لذلك جواب السؤال لماذا يجب أن يوجد إله هو لأن الإنسان مخلوق لا خالق, مربوب لا رب, وهو مفعول للفاعلِ الذي هو الإله سبحانه وتعالى

إنما سبق بديهي, وفطري, واضح وضوح الشمس, لذلك إبراهيم صلى الله عليه وسلم انطلق مباشرة بعد أن نفى صفة الألوهية عن الأصنام في البحث عن إله يعبده, لأنه يعلم يقينا بضرورة وجود إله واحد لهذا الكون.

ما هو الإيمان بالله

يتصور كثير من الناس أن الإيمان بالله مجرد الاعتراف بكونه سبحانه خالق السموات والأرض وما بينهما, ومدبر كل شيء, دون أن يتعدى الأمر مجرد الاعتراف.

إن هذا التصور تصور خاطئ، فالمشركون في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يعترفون لله عز وجل بكل ما سبق، وبالرغم من ذلك هم كفار بربهم كما أخبر ربنا عز وجل في كثير من الآيات، مما يجعل السؤال ما هو الإيمان بالله سؤالا ملحا، يجب على المسلم معرفة جوابه ليحققه قبل أن يأتيه الأجل

لمعرفة ماذا يعني الإيمان بالله ما علينا سوى البحث في وحي الله عز وجل، وسوف نجد آيات كثيرة تخبرنا عن حقيقة الإيمان بالله، سوف نقف مع هذه الآية منها:

﴿ وَإِن تَعجَب فَعَجَبٌ قَولُهُم أَإِذا كُنّا تُرابًا أَإِنّا لَفي خَلقٍ جَديدٍ أُولئِكَ الَّذينَ كَفَروا بِرَبِّهِم وَأُولئِكَ الأَغلالُ في أَعناقِهِم وَأُولئِكَ أَصحابُ النّارِ هُم فيها خالِدونَ ﴾ [الرعد: ٥]

إذا تأملت هذه الآية تجد فيما أن الله عز وجل عدَّ الكفر بالبعث بعد الموت كفرا به سبحانه، مع أن الكفار لا ينكرون وجود الله، بل على العكس من ذلك يتقربون إليه بصلاتهم وحجهم.

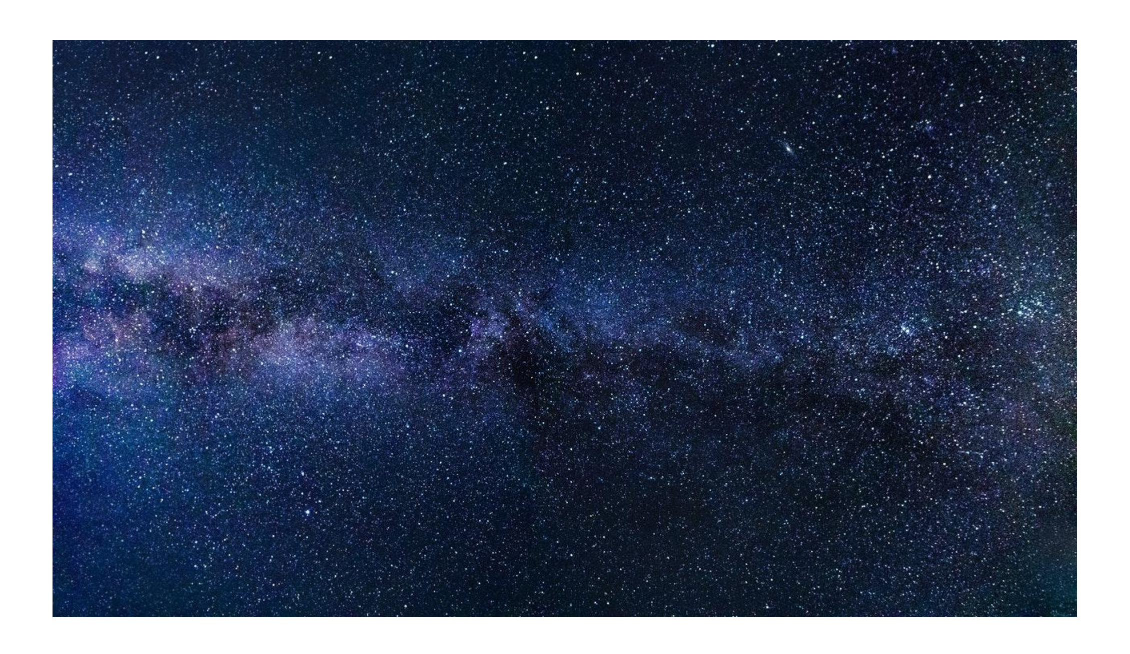
إذا حاولنا إجابة السؤال لماذا عدَّ الله الكفر بالبعث كفرا به سبحانه نجد أن الكافرين إيمانهم بالله مجرد الاعتراف بكونه سبحانه خالق السموات والأرض، وحسب وليس له تدخل مباشر بعد ذلك، فالله وضع النظام الذي يسير عليه الكون وانتهى الأمر، ولذلك كل أمر مناف لقانون الأسباب مرفوض عندهم، ومنه مسألة البعث بعد الموت.

أي أن كفر الكفار بالله يتجلى في إبعاد الله عن التدخل المباشر في الحياة الواقعية، التي يرى الكفار أنها تدار وفق قانون الأسباب وحسب.

يتأكد هذا المعنى في آيات كثيرة منها قول قارون أنه هو من جمع ماله بالأسباب المادية:

﴿ قالَ إِنَّما أوتيتُهُ عَلى عِلمٍ عِندي أَوَلَم يَعلَم أَنَّ اللَّهَ قَد أَهلَكَ مِن قَبلِهِ مِنَ القُرونِ مَن هُوَ أَشَدُّ مِنهُ قُوَّةً وَأَكثَرُ جَمعًا وَلا يُسأَلُ عَن ذُنوبِهِمُ المُجرِمونَ ﴾ [القصص: ٧٨]

مما سبق يمكن أن نستنتج أن الإيمان بالله ليس مجرد الاعتراف بكونه سبحانه خالق السموات والأرض وما بينهما وحسب، وإنما العمل وفقا لهذه الحقيقة أي عبادته سبحانه وحده ورجاء لقاءه واستحضار معيته سبحانه دائما.



بغض النظر عما إذا كان إبراهيم صلى الله عليه وسلم عاش التجربة التالية بالفعل كما يدل على ذلك ظاهر الآيات، أو أنه أراد أن يقيم الحجة على قومه الذين يعبدون الكواكب، إلا أن هذه التجربة هي الطريق السليم لبناء إيمان بالله حقيقي راسخ.

فالإيمان بالله يجب أن يتحول من تلك الحقيقة الثابتة في اللاشعور، إلى الحقيقة الشعورية التي نحسها واقعيا ونتعامل معها، وهذا لا يمكن أن يكون إلا من خلال تجربة البحث عن الله من خلال النظر إلى بديع صنعه.

ساعتها، وفقط ساعتها، يتحول الإيمان بالله إلى الإيمان الفعال، الذي يقوم على استشعار معية الله في كل فعل، وعلى رجاء لقاء الله، والتحضير له كما يجب:

﴿ مَن كانَ يَرجو لِقاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّميعُ العَليمُ ﴾ [العنكبوت: ٥]

أما من غير خوض غمار هذه التجربة، سيظل الإيمان بالله حبيس اللاشعور، يظهر بين الفينة والأخرى، عند الكروب كما أخبر ربنا عز وجل:

﴿ هُوَ الَّذي يُسَيِّرُكُم فِي البَرِّ وَالبَحرِ حَتّى إِذا كُنتُم فِي الفُلكِ وَجَرَينَ بِهِم بِريحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحوا بِها جاءَتها ريحٌ عاصِفٌ وَجاءَهُمُ المَوجُ مِن كُلِّ مَكانٍ وَظَنّوا أَنَّهُم أُحيطَ بِهِم دَعَوُا اللَّهَ مُخلِصينَ لَهُ الدّينَ لَئِن أَنجَيتَنا مِن هذِهِ لَنَكونَنَّ مِنَ الشّاكِرينَ ﴾ [يونس: ٢٢]

ولكن بمجرد ما يزول الخطر، يختفي الإيمان بالله في اللاشعور مرة أخرى، ويعود البشر لسابق عهدهم بالكفر

﴿فَ لَمّا أَنجاهُم إِذا هُم يَبغونَ فِي الأَرضِ بِغَيرِ الحَقِّ يا أَيُّهَا النّاسُ إِنَّما بَغيُكُم عَلى أَنفُسِكُم مَتاعَ الحَياةِ الدُّنيا ثُمَّ إِلَينا مَرجِعُكُم فَنُنَبِّئُكُم بِما كُنتُم تَعمَلونَ﴾ [يونس: ٢٣]

لذلك من الضروري خوض تجربة النظر في السموات والأرض، حتى يتحول إيماننا بالله إلى إيمان فعال يشكل واقعنا وتصوراتنا.

بدأ إبراهيم صلى الله عليه وسلم التجربة بالنظر في الكوكب الذي رءاه في ظلام الليل كما أخبرنا ربنا في قوله:

﴿ فَلَمّا جَنَّ عَلَيهِ اللَّيلُ رَأى كَوكَبًا قالَ هذا رَبّي فَلَمّا أَفَلَ قالَ لا أُحِبُّ الآفِلينَ ﴾ [الأنعام: ٧٦]

لذلك على المؤمن اليوم النظر في ملكوت السماوات والأرض نظرة الباحث عن عظمة الله عز وجل، الموقن بكون ما يراه لا يمكن أن يكون إلها نظرا لكونه متغير، يبزغ تارة، ويأفل أخرى، مفعول به، لا فاعل.

إبراهيم صلى الله عليه وسلم في الخطوة التالية وسع النظر، ونظر إلى ماهو أكبر من ذلك الكوكب البعيد، لنرى في هذا التدرج بين الكوكب البعيد، والقمر الكبير، عظمة الله عز وجل الذي فطر هذا الكون العظيم، وجعل بعضه أكبر من بعض، فالله هو رب الجميع الذي أحسن كل شيء خلقه سبحانه

﴿ فَلَمّا رَأَى القَمَرَ بازِغًا قالَ هذا رَبّي فَلَمّا أَفَلَ قالَ لَئِن لَم يَهدِني رَبّي لَأَكونَنَّ مِنَ القَومِ الضّالّينَ ﴾ [الأنعام: ٧٧]

فضلا عن النظر في ملكوت السماوات والأرض واستحضار عظمة الله عز وجل، ونظرا لنوع الآلهة التي يعبد أقوامنا، من الضروري أن ينظر المسلم لكل واحد منها بتجرد ليرى حقيقته الفعلية وهي كونه لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا أحرى لغيره.

إذا نظرنا لطواغيت عصرنا نظرة متجردة نجدهم ضعفاء مفتقرين للمخلوقات من حولهم، مهما تجبر الواحد منهم يظل ضعيفا في نفسه محتاجا للجماهير لكي يبقى في مكانه وهو مع ذلك ضعيف في نفسه عاجز عن التنفس لولا إذن الله.

لذلك ما كانت هذه حاله هو في الحقيقة لا يختلف عن ذلك الكوكب الآفل بعد حين, ومن ثم هو غير مستحق للعبادة بأي حال من الأحوال.

نكران الذات والافتقار إلى الله

إن الإنسان ضعيف جدا وتلك هي الحقيقة التي يجب أن لا تغيب عن وعيه, وتتأكد هذه المسألة عندما يكون الأمر متعلق بإدراك الخالق سبحانه, هذا ما أدركه إبراهيم صلى الله عليه وسلم فتبرأ من حوله وقوته وفوض الأمر كله لله عز وجل حين قال:

﴿ قالَ لَئِن لَم يَهدِني رَبّي لَأَكونَنَّ مِنَ القَومِ الضّالّينَ ﴾ [الأنعام: ٧٧]

فالإنسان لا إرادة له ولا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا, والأمر كله لله عز وجل وحده بما فيه الهداية له سبحانه, فلا يمكن أن يهتدي المرء من عند نفسه, مهما كان علمه وعقله فالإنسان مهما بلغ يظل مفعولا به لا فاعلا.

إن إبراهيم عليه السلام بإعلانه السابق يكون قد دعى الله بصدق الهداية, وهذا ما نحتاجه بشدة, فلو صدقنا مع الله في طلب الهداية, وأنبنا إليه سبحانه كما فعل إبراهيم, لهدانا الله كما وعد في قوله:

﴿ وَيَقولُ الَّذينَ كَفَروا لَولا أُنزِلَ عَلَيهِ آيَةٌ مِن رَبِّهِ قُل إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشاءُ وَيَهدي إِلَيهِ مَن أَنابَ ﴾ [الرعد: ٢٧]

فما علينا سوى نكران الذات والافتقار إلى الله عز وجل وسوف يهدينا برغم هذه الفتن الكثيرة التي ظهرت ولا تزال تظهر كل يوم في واقعنا, وقد فصلت في مقال كيف تكون مسلما حقا الطريقة العملية التي ستدفعك إلى الإنابة إلى الله.

البراءة من المشركين

بعد أن أنكر إبراهيم صلى الله عليه وسلم ذاته وطلب الهداية من ربه يلفت نظرنا لأكبر جرم نشاهده بأعيننا تعلق به كثير من الناس قديما ألا وهو الشمس لينبهنا على حقيقة

نشاهدها دوما وهي كون هذه الشمس تأفل كما تأفل بقية الكواكب والنجوم وبالتالي لا يمكن أن تكون إلها حين قال :

﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمسَ بازِغَةً قالَ هذا رَبّي هذا أَكبَرُ فَلَمّا أَفَلَت قالَ يا قَومِ إِنّي بَريءٌ مِمّا تُشرِكونَ﴾ [الأنعام: ٧٨]

بأفول الشمس لا يبقى مخلوق مستحق للعبادة فكل المخلوقات آيلة إلى زوال بما في ذلك أكبر المخلوقات وهي الشمس ومن ثم فلا يوجد شريك لله سبحانه وتعالى أيا كان

إن قوم إبراهيم كانوا يعبدون الأصنام ويعبدون الله, فهم لم يكونوا منكرين لله عز وجل بل يعبدونه كما قال أخبر بذلك إبراهيم نفسه عنهم حين قال:

﴿قالَ أَفَرَأَيتُم ما كُنتُم تَعبُدونَ۝أَنتُم وَآباؤُكُمُ الأَقدَمونَ۝فَإِنَّهُم عَدُوٌّ لي إِلّا رَبَّ العالَمينَ﴾ [الشعراء: ٧٥-٧٧]

فقد استثنى رب العالمين مما يعبدون, ولكنهم كانوا يشركون بالله أصناما وبيّن لهم إبراهيم أن كل المخلوقات آيلة إلى زوال مهما صغرت أو كبرت ومن ثم فإنهم آثمون بشركهم بالله مخلوقا من مخلوقاته لا يملك لهم ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا, وهذا ما أراد إبراهيم صلى الله عليه وسلم إثباته لهم ليعلن في الأخير براءته مما يشركون.

التوجه إلى الله

الآن وبعد أن أعلن البراءة مما يشرك قومه يستيطع أن يكون صادقا في التوجه إلى الله عز وجل, وإفراده بالعبادة مستشعرا عظمته سبحانه حيث قال:

﴿إِنّي وَجَّهتُ وَجهِيَ لِلَّذي فَطَرَ السَّماواتِ وَالأَرضَ حَنيفًا وَما أَنا مِنَ المُشرِكينَ﴾ [الأنعام: ٧٩]

فهو وحده سبحانه الذي يستحق العبادة لأنه وحده من بيده ملكوت كل شيء وغيره مفتقر إليه سبحانه في كل لحظة

إن التوجه إلى الله عز وجل لا بد أن يكون خالصا لله عز وجل لا تشوبه شائبة, وذلك لن يتحقق إلا بإعلان البراءة من المشركين إعلانا صريحا واضحا ومؤكدا, فبهذا الإعلان تنقطع كل الروابط مع المشركين ويخلص المرء لله وحده في كل شيء وبهذا يتحقق التوحيد المطلوب